مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

ثقافة المواطنة اليوم

بين نظام التفاهة وضرورة استدعاء قيم التنوير

محمد غنام
باحث مغربي

2024

- **بحث محكم**
- **قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية**
- 13 يونيو 2024

جميع الحقوق محفوظة © 2024

ثقافة المواطنة اليوم
بين نظام التفاهة وضرورة استدعاء قيم التنوير

على سبيل التقديم

تجعل المواطنة citizenship السيادة أمرا راجعا إلى جماعة المواطنين، وهم تحديدا أولئك الذين يحملون جنسية البلد الذي يقيمون فيه[1]، والذين منهم تنبثق القرارات المتعلقة بالشأن العام public affairs-res-publeca. إن المواطنة بهذا المعنى تقتضي مركزية المواطن في عملية صياغة القوانين عبر الاستخدام العمومي للعقل في نقاش علني سجالي تتعارض فيه المواقف المدعمة بالأدلة والحجج. تشكل المواطنة جوهر الممارسة السياسية الديمقراطية القائمة على التشاور العمومي واتخاذ القرارات بشكل حر ومسؤول منزه عن أي نزعة كانت دينية أو عرقية أو إيديولوجية أو غيرها. يتجلى هذا المعنى العلماني secular meaning لمفهوم المواطنة داخل الفضاء العام، بوصفه شكلا من أشكال إشاعة السلطة بين الناس وإتاحة فرصة المشاركة في تكوينها للجميع؛ فتتحقق النقلة العملية من مشروعية وشرعية الحاكم إلى مشروعية وشرعية الجماعة السياسية المتمثلة في مجموع المواطنين citizens.

ولا يخفى على أحد أن مفهوم المواطنة يرجع في أصله إلى جذور يونانية ارتبطت أساسا ببروز شكل الحكم المسمى «الديمقراطية» dimocracy[2]، ضمن مؤسسات سياسية أطلق عليها مسمى المدينة-الدولة /etat-cite[3] city-state، التي تشكل الأغورا قلبها النابض، وقد صار هذا المفهوم مرجعا معتمدا في بناء التأويلين الفلسفيين الحديث والمعاصر لما يسمى المواطنة العالمية global citizenship[4]. فلا مواطنة من دون ديمقراطية وفضاء عمومي يستضيف الجميع باختلافهم وتنوعهم، كما أنه لا مواطنة بدون حوار ونقاش سياسي هدفه لا الدفاع عن حقيقة بعينها يمتلكها أحد أطراف النقاش، وإنما بناء حقيقة جماعية يؤول إليها النقاش العمومي نفسه؛

1

تجدر الإشارة ابتداء إلى ضرورة التمييز الذي رسخه الاستخدام القانوني والحقوقي الدولي بين مفاهيم المواطن والأجنبي واللاجئ والنازح والعامل المهاجر؛ فالمواطن الشخص الذي يحمل جنسية الوطن الذي يقيم فيه والأجنبي الشخص الذي لا يحمل جنسية البلد الذي يقيم فيه، واللاجئ الشخص الذي لجأ إلى دولة أجنبية جراء فقدانه حماية دولته الأصلية إن بسبب عدم قدرتها أو عدم رغبتها في حمايته، والنازح من ينتمي لمجموعة سكنية غادرت مكان سكناها اضطرارا وقد يكون النزوح داخليا أو خارجيا، والعامل المهاجر الشخص الذي يتمتع بحماية بلده الأصلي، لكنه هاجر إلى بلد أجنبي تحسينا لظروف عيشه.

2 النموذج القديم للديمقراطية... فضل مبدأ الديمقراطية المباشرة الذي سمح للناس المجتمعين باتخاذ القرار مباشرة من داخل الأغورا مفتوحة أمام جميع المواطنين الأحرار، وهو نفس المبدأ الذي دافع على اعتماده نشطاء الثورة الفرنسية. انظر CHRISTIAN LE BART. CITOYENNETE ET DEMOCRATIE.LA DOCUMENTATION FRANCAISE.PARIS.2016. P.24

3 «إن المدينة اليونانية هي التي أوجدت المواطن كعضو في جماعة المواطنين الأحرار المتساوين؛ أي ما كانت الاختلافات التي تفصل بين أولئك الذين يكونون المدينة من ناحية الأصل أو المكانة أو الوظيفة، فهم يبدون بشكل ما متشابهين، هذا التشابه يؤسس وحده المدينة» انظر

دومينيك شنابر وكريستيان باشولييه. ما المواطنة؟ ترجمة، سونيا محمود نجا. المركز القومي للترجمة. القاهرة. الطبعة الأولى. 2016.ص، 12

4 المواطنة العالمية تعريب لكلمة cosmopolitisme، وهي تعبير يتكون من كلمتين يونانيتين؛ cosmos وتعني العالم، وpolites تعني المواطن، فالتعبير يعني حرفيا المواطنة العالمية القائمة على اعتبار الإنسانية أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها هم البشر جميعا بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية والعرقية والجنسية.

والكوسموبوليتية حسب «كانط إيمانويل» مثلا؛ فكرة تنظيمية يجب السعي دائما إلى تحقيقها دون تراخ إنها وجهة نظر فلسفية تتعلق بتقدم الحرية على الأرض بأكملها. إنها بمثابة خيط مرشد يجعلنا ننظر للتاريخ الكوني على أنه يتوجه نحو تحقيق نظام عادل على المستوى الداخلي وجمعية تتحد فيها أمم الأرض وشعوبها على المستوى الخارجي؛ أي نحو إقامة علاقات على المستويين الوطني والدولي تحكمها قوانين كونية عادلة، وفي هذه الوضعية ستنفتح كافة الاستعدادات الأصلية في الطبيعة البشرية. —كانط إيمانويل؛ فكرة عن تاريخ كوني من زاوية نظر المواطنة العالمية، ترجمة؛ محمد منادي إدريسي، نشر ضمن ترجمات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، بتاريخ 20 يونيو 2020 بالمغرب، الرباط، ص2

فالحقيقة في المواطنة أفق للنقاش لا منطلق له، مع ما تقتضيه الروح الفلسفية المعاصرة من تنسيب التعامل مع مفهوم الحقيقة ذاته، سواء اعتبرت هذه الحقيقة دالة على الخير الأسمى لعموم المواطنين بالمعنى الأرسطي القديم أو على المنفعة بالمعنى الفلسفي الحديث.-وربما هذا هو الخيط الرفيع الناظم بين التأويلين الفلسفيين الحديث والمعاصر لفكرة المواطنة من جهة، وفي علاقة هذين التأويلين بالجذور اليونانية لمفهوم المواطنة من جهة ثانية-.

ومع تغول الشعبوية populisme في العقدين الأخيرين من زمننا المعاصر، وما صاحب هذا التغول من سيادة قيم الصراع والانغلاق باسم المصالح الوطنية، وتراجع قيم الأنوار المتمثلة في العقلانية وتحالف الفعاليات الإنسانية لربح رهان تحدي التعصب والجهل والتخلف، صارت التفاهة نظاما يحكم النقاشات العمومية، ويوجهها -بآلية الإعلام المسيطر عليه والمتحكم فيه- نحو أبعاد مادية سطحية ومتع عابرة، ويعتم على ما وراء هذه الأبعاد والمتع. فغدونا نلج شيئا فشيئا في ما يسمى بـ «عصر التفاهة» the era of insignificance. تحول العالم في عصر التفاهة هذا من مجال الممارسة السياسية المحتكمة لقواعد الديمقراطية والعدل والإنصاف إلى مجال يحكمه الاستبداد والديكتاتورية الممانعة لظهور أي شكل من أشكال دولة القانون ومجتمع الحقوق والحريات. ولم يسلم الغرب نفسه، وهو محتضن الديمقراطية والعقلنة والعدالة والحق من الانخراط في سيرورة التفاهة هاته. الأمر الذي يسائل مصداقية ما دأب يزعم التبشير به على الصعيد الكوكبي منذ المرحلة الاستعمارية (المهمة التحضيرية مثلا la mission civilisatrice) إلى الزمن الراهن. وهذا ما جعل منظومة المواطنة اليوم تعيش أزمة مركبة يتداخل في تشكليها والتصعيد من آثارها الإعلامي بالتكنولوجي والسياسي بالاقتصادي والنفعي الشخصي بالموضوعي الإيديولوجي، انطلاقا من ظاهرة التعقيد أو التركيب التي تسم الظواهر الإنسانية والمجتمعات المعاصرة وفق تعبير الفيلسوف الفرنسي الشهير إدغار موران.

ولعلنا نكون مدركين أن المسألة التي نطرحها هنا هي مسألة الفوضى...لا يعني هذا أنه لم يعد أمامنا ما نفعله...وإنما يعني ذلك بأسلوب عملي...أن الإقامة الذاتية للمجتمع community self-accomodation[5]... أصبحت مجرد حلم لا يجد شروطا يتغذى عليها. وهذا هو المعنى الحقيقي لطبيعة الفوضى التي يخلقها نظام التفاهة، لكن ألا يوجد ما يمكن فعله لمقاومة ومواجهة هذا النظام وهذه الفوضى الموجهان لاغتيال ثقافة المواطنة محليا وكوكبيا؟ وإذا كان فعل التفاهة صنيعة إنسانية ألا يمكن مواجهته بفعل إنساني أقوى منه؟ وما البداية المتيحة لوضع قطار المواطنة على سكته من جديد؟ هل يمكننا مواجهة نظام التفاهة دونما الوعي التام بمجموع شروط تكونه؟ هل تقتضي هذه المواجهة مجرد الشعور بخطورة هذا النظام فقط أم تقتضي الوعي به عقلانيا وأخلاقيا؟ وما سبيلنا الفلسفي حتى نعيد الاعتبار لثقافة المواطنة؟

---

5 دولاكومباني كريستيان؛ الفلسفة السياسية اليوم، ترجمة؛ نبيل سعد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2003، ص290/292

نظام التفاهة: الطبيعة والخطاب

تفاعلا مع ما تجود به الساحة الفكرية من أعمال فلسفية واستحضارا للطبيعة الحوارية للفلسفة، نرى أنه من الملائم إيلاء كتاب «نظام التفاهة» la médiocratie للفيلسوف الكندي المعاصر «آلان دونو»Alain[6] Deneault ما يستحقه من القراءة والنقد، خاصة وأن إسهامه هذا قد اجترح مفهوم نظام التفاهة نفسه، وأجلى كثيرا من مغاليق الوعي به، وبسط كيفية اشتغاله، وحدد الطرائق التي انتهجها لاغتيال ثقافة المواطنة والنقاش العقلاني، واقترح الحلول الممكنة للقطيعة معه.

ينطلق آلان دونو في كتابه «نظام التفاهة» من فكرة محورية، تقول: «نحن نعيش مرحلة تاريخية غير مسبوقة، تتعلق بسيادة نظام أدى تدريجيا إلى سيطرة التافهين على جميع مفاصل الدولة الحديثة. بذلك وعبر العالم يلحظ المرء صعودا غريبا لقواعد تتسم بالرداءة والانحطاط المعياريين، فتدهورت متطلبات الجودة العالمية، وغيب الأداء الرفيع، وهمشت منظومة القيم، وبرزت الأذواق المنحطة، وأبعد الأكفاء، وخلت الساحة من التحديات، فتسيدت إثر ذلك شريحة كاملة من التافهين والجاهلين ذوي البساطة الفكرية، وكل ذلك لخدمة أغراض السوق بالنهاية، ودائما تحت شعار الديمقراطية والشعبوية والحرية الفردية والخيار الشخصي.....»[7]. تفيد هذه الفكرة المحورية مزامنتنا عصرا أفرغت فيه القيم من مضامينها وأبعادها الإنسانية، واجتثت من جذورها التأملية، لصالح قيم استهلاكية مشبعة بروح تكنوقراطية جاهلةignorant technocracy وبيروقراطية محدودة limited bureaucracy. فعصرنا[8] الحالي حسب آلان دونو، عصر الجزئيات والمصالح المادية الصرفة، صار معه الشأن العام موضوعا للاستهلاك اليومي والتدبير السياسي التقني المتجاوز للمفهوم الكلي الشامل للحالة المدنية، وهي الحالة التي يتغيا فيها الكائن المدني لا الخير الجزئي، بل الخير الأسمى المتمثل في سعادة الجماعة الأخلاقية/السياسية. وإذا كان بالتالي للمسيطرين على هذا العصر من عمل يقومون به فيما يخص تصور الإنسان وحقوقه، فهو لا يعدو أن يكون تزكية قيم الفردانية الرثة، التي تضع الفرد على سكة لا نهاية لها من حاجات ورغبات ونزوات تتقاذفه أمواجها ويجهد في تحصيلها نفسيا وبدنيا، ما دامت تجعله رقاصا يراوح مكانه بين الألم والملل، فيضيق اهتمامه السياسي والقيمي، وتصير المواطنة بالنسبة إليه مجرد تفاهة لا تستحق أي حديث أو اهتمام. ولا أدل على ذلك من سيادة ظاهرة العزوف عن العملين السياسي والمدني، التي صارت ملحوظة في المجتمعات المعاصرة.

---

6 آلان دونو؛ Alain Deneault فيلسوف كندي من مواليد 26 شتنبر 1970، دكتور في الفلسفة من جامعة باريس 8 سنة 2004، ومدير برنامج في الكلية الدولية للفلسفة في باريس. يعيش في مونتريال، حيث يعمل محاضرا في علم الاجتماع بجامعة كيبك. التابعة لقسم العلوم السياسية، وهو صاحب كتاب «نظام التفاهة» الذي صدر سنة 2017

7 دونو آلان، نظام التفاهة، ترجمة وتعليق؛ مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار السؤال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020، ص؛ 14/13

8 لقد أصبحت التفاهة في عصرنا تقدم نفسها بوصفها حقيقة اجتماعية، «هذه الحقيقة الاجتماعية التي تقود الفكر العام حتما إلى نقطة الامتثال؛ أي إنها تقدم نفسها على شكل وسط مركزي، لحظة متوسطة تأخذ قالب برنامج سياسي».Alain Deneault.La Médiocratie.Lux ed. canada.2015. p.15

يصير كل شيء ذي شأن في نظام التفاهة مجرد لعبة بالمعنى السلبي لهذه الكلمة (الدال على اللهو)، لعبة للأفراد لا يربح فيها المجتمع كما ولا تربح السياسة، «فلا أهمية لأي شيء...فلا سياسة ولا جامعة ولا إعلام...ولا حتى شؤون الصالح العام هي أمرهم، إذ تقتضي التفاهة أن نتذكر أن الأمر بالنهاية لا يعدو أن يكون لعبة[9]»... إذ تتعدد الألعاب بين اللعبة السياسية واللعبة الديمقراطية...، ومادام كل نظام يملك خطابا يظهر من خلاله ويتجسد، فإن نظام التفاهة يملك كذلك خطابا ينماز به، تتجلى مفرداته في أساليب يمكن إجمالها في اثنين أساسيين: **أسلوب القص المستهدف التبسيط ولغة الخشب.**

يتوجه الأسلوب الأول-القص الهادف التبسيط- أساسا للتأثير على مشاعر الناس وإحياء غرائز القطيع بدواخلهم، وهو أسلوب قديم/جديد، يتخذ شكل مواعظ وأحاديث تبهر المتلقي[10]، وتجعله مندهشا من أمر لا يحمل في ذاته ما يدعو للانبهار أو الاندهاش.

أما الأسلوب الثاني -لغة الخشب- فيعد أهم أساليب إنتاج الخطاب في نظام التفاهة. إنها لغة لا تحمل أي معنى ولا تهدف إلى اكتشاف أي حقيقة، وإنما توجه للاستهلاك إن لم يكن لما هو أدهى منه ألا وهو التبسيط الخطير dangerous simplification، بما يحمله من تسطيح لكل ما هو مفيد وتبخيس لكل ما هو معتبر، عبر تجزيئ المجزإ بدعوى ظاهرها تيسير تبليغه وباطنها مزيد من تتفيه الوعي بشقيه الفردي والجماعي.

ولعل الخطورة هنا تكمن في ولوج هذه النزعة التبسيطية مختبرات البحث العلمي[11] في جميع التخصصات والمسالك الجامعية، والإمعان في تجزيئ العلوم والإكثار من تخصصاتها وإفراغها من بعدها القيمي، بل وتصيير الهدف منها صناعة الخبير المختص في مواضيع محدودة، لا إنتاج العالم أو المثقف الممتلك للحس النقدي والمشبع بالتفكير الإنساني العاقد الصلة بين العلم واستخداماته الأخلاقية.[12]

لا شك أن الاعتماد على «**الخبير**» يسهم في تسطيح المعرفة وإفقادها أدوارها الاجتماعية والأخلاقية والسياسية وحصرها في الشق الاستهلاكي التقني البسيط، والمرتبط بمجال محدود زمانيا ومكانيا. فالخبير ذو معرفة مقتصرة على مجال تخصصي جزئي، يبيعها بمقابل مادي، مما يفقده شمولية الفكر ونزعة النقد اللازمتين

9 دونو آلان، نظام التفاهة، ترجمة وتعليق مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار السؤال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020، ص26

10 والملفت هنا أن فعل أبهر يفيد في العربية في الآن نفسه معنيين متناقضين: معنى أعجب بما رأى ومعنى أعمى أو لم يرى.

11 «تقتصر المؤسسات والمعاهد البحثية في عملها على أسلوب غير صارم في العمل، وتجعل من اعتماد التفاصيل السطحية في الحكم على النظريات سواء بالقبول أو الرفض أسلوبا لها» Alain Deneault.La Médiocratie.Lux ed. canada.2015. p.33

12 أما عن الإكثار في خلق التخصصات الجامعية الدقيقة، فهذه أيضا يرى فيها المؤلف سببا آخر للتفاهة، فالجامعات الآن تسطح المعارف من خلال اهتمامها بتعميقها بدلا من توسعتها، فلا تعنى-في معرض تدريس العلوم الموضوعية-بترسيخ القيم العلمية في طلبتها من تفكير نقدي والوقوف على العلاقات بين الموضوعات المتفرقة والفضول المعرفي، وغيرها.....ولعله من المفيد هنا إيراد ما قاله عبد الله العروي حين سئل عن نصيحته للطلبة؛ إذ قال: «لا تتخصص، خذ(أو تسلح)باللسانيات والفلسفة والأدب بجانب التاريخ، وخذ التاريخ مأخذ الجد ولا تتخذه هواية. إن كنت مؤرخا سيئا. يوجد في المغرب تخصص زائد عن الحد في المنظومة التربوية...يقضي الطلبة سنوات من دراسة التاريخ وحده، القديم والوسيط والحديث، والمعاصر. لكن كيف يمكن فهم الثورة الصناعية من دون اقتصاد؟ كيف يمكنك أن تفهم أدب العصر الوسيط من دون لسانيات؟ من الصعب تفسير القرن التاسع عشر في المغرب لطلبة ليس لديهم أي فكرة حول النظام الرأسمالي....» نظام التفاهة، ص37/36

لتقويم العلم والنظر في أدواره داخل الفضاء العمومي. فليس العلم في نظره مجالا لإنتاج المعرفة بالأساس وإنما مجال للارتزاق.

يتغذى نظام التفاهة إذن على أسلوب القص الهادف التبسيط ولغة الخشب والتخصص الجامعي وفكرة الخبير، ويتوسل بهذه المقومات لإضفاء المقبولية الخطابية والأكاديمية على كل ما هو رديء، مقبولية تجعله صالحا للاستهلاك وأهلا لاهتمام أفراد المجتمع. لا شك إذن، أن من شأن نظام التفاهة بقيامه على هذه المقومات تحوير النقاش وتحويل زاوية النظر الاجتماعي نحو اللاسياسة واللاقيم وبالنتيجة نحو اللامواطنة. وبلغة الفيلسوف الألماني هربرت ماركوز صاحب كتاب «الإنسان ذو البعد الواحد» تخدير المعارضة-أي المجتمع وقواعده الحية-من خلال إقبار الوعي الاجتماعي.

نظام التفاهة: في الأسين التقنوي والاستهلاكي

استطاع نظام التفاهة أن يبصم كل شيء بطابعه التقنوي-التبسيطي مما أفرغ أغلب مناحي الفاعلية الإنسانية من ثقافة وفن ومهن من بعدها القيمي وأفقدها كل شغف، فغدت النزعة الاستهلاكية مركز القرار، وأضحى الإبداع صناعة تحت الطلب، والمهنة استرزاقا.

➢ من وضعية المثقف إلى وضعية المعتد بنفسه «الخبير» أو من الشغف المهني إلى الاسترزاق

يحيل لفظ المثقف على ذاك المفكر الملتحم بقضايا الشعب المالك للفكر النقدي والقادر على تحليل ومناقشة ليس فقط مضامين المشكلات، بل أيضا خلفياتها وما يشكل تمفصلاتها مع النسق الكلي للواقع الاجتماعي في شموليته. هكذا كان المثقف منذ زمن ليس بالبعيد بمثابة نور أو طريق نحو الفهم الكلي ومرآة تكشف وجه الواقع وتعري حقائقه فيصير مجلوا من دون أقنعة تحجبه. لكن ومع بروز النزعة التخصصية صار المثقف يتوارى شيئا فشيئا لصالح الخبير، مما انعكس سلبا على الفعالية الاجتماعية للمعرفة «فكلما حاولنا فحص أسباب مخاطرنا الجمعية درسناها ونحن مقطوعو الصلة بالعالم، متخصصون في مجالات معرفية فرعية لا متناهية الصغر، فاقدون للقدرة على التفكير النقدي، مهووسون بالتطور الوظيفي، وموالون لشبكاتنا الاجتماعية من الزملاء، والتي تبدو إلى القبائل أقرب»...[13] لقد أصبح هم العالم، في خضم العمل من داخل نظام التفاهة، الاسترزاق بما يملك من معارف في ذهول عن أي توجيه قيمي أخلاقي لها، وفي إعراض تام عن جميع مآلاتها الاجتماعية، بل إنه صار مستعدا لتبرير الأخطاء والجرائم تجاه الطبيعة والإنسان بما يسوقه من أدلة وحجج فقط لإرضاء الأطراف الممولة والظهور في جبة الخبير المتمكن والحال أنه لا يعمل إلا على تكريس التفاهة وإضفاء طابع المعقولية عليها. وإن خبراء experts من هذا القبيل لهم سبب لكثير من مشاكلنا. و«ما تم العمل عليه في الجامعات من أبحاث ومن تدريب هو ضمن العوامل التي خلقت مشكلات مثل الأزمة

13 دونو آلان، نظام التفاهة، ترجمة وتعليق مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار السؤال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020، ص87

الإيكولوجية الحالية ecological crisis، تباين الدخل المسبب للإقصاء وطنيا وعالميا، اعتمادنا على الوقود الأحفوري fossil fuels، الاستهلاك المتزايد، التقادم المخطط planned obsolescence، الطريقة التي تم بها قلب الثقافة رأسا على عقب إلى أن تحولت إلى مجرد صناعة للترفيه، استعمار العقول من قبل الإعلان التجاري، سيطرة نظام التمويل الدولي على الاقتصاد، وعدم استقرار هذا النظام. في النهاية، أليس أعضاء هيئة التدريس في الجامعات والعاملون في الأقسام العلمية والمعامل هم النخبة élites؟ ألا يقوم الرياديون من صناع القرار وطواقمهم بتشكيل العالم الذي نعيش فيه وتحديده من خلال المعارف المتحصلة أو المتطورة في الجامعة، والمدعمة بالشواهد المبهرة؟»[14] إن المثقف (الجديد) الذي سخر الجامعة بمختبراتها وشعبها آلية لتدعيم نظام التفاهة هو جزء عظيم من أزمتنا اليوم. إنه لا يهتم بالخير الأسمى أو يمتلك شغف المهنة، بل فقط مرتزق هدفه الحصول على شهرة موهومة وتطور وظيفي سريع.

➢ النزعة التجارية أو استهلاك كل شيء بيعا وشراء

«الثقافة والفكر والفن تحت سلطة المال»

أسهمت النزعة التقنوية في تعميق التخصص السلبي المقاوم لكل أشكال الفكر النقدي، وطال هذا الأمر مجالات التقدم العلمي والإبداع الثقافي والفني، فصارت مجالات خاضعة لمنطق الصناعة والتجارة، وما إمعان المؤسسات الجامعية في التخصص الدقيق إلا الدليل على ذلك، فكل عمل ينجز يكون داعيه الطلب الاستهلاكي والمقابل المادي الذي يعدم الشغف من عملية البحث في عالم تسوده ثقافة البورصة وسلطة المال. هكذا إذن نلفى النزعة التجارية وقد غزت كل مناحي الحياة، وصيرت الإنسان كائنا مستهلكا consumer إن لم نقل بضاعة merchandise. واستنفدت طاقة الإيروس الحضاري الجديد وانزاحت به من منطق اللذة إلى منطق الحساب المادي الصرف.

لم يعد للقيم والأعراف والتقاليد، تلك المستدمجة داخل البناء النفسي للشخصية والمعبر عنها بالأنا الأعلى super-ego حسب لغة الطبيب والمحلل النفسي سيغموند فرويد، دور فاعل في التحكم في رغباتنا والسيطرة على مجال إنتاجها[15]، بل خلق الواقع الجديد في عصر التفاهة أنا أعلى جديد كوكبي شامل عابر للقارات يعلي من شأن الرغبات المكبوتة بالأمس ويحررها ويتيح استهلاكها التجاري. وقد عبر دولوز وغاتاري عن هذا في

14 دونو آلان، نظام التفاهة، ترجمة وتعليق مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار السؤال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020، ص88/87

15 في هذا السياق، يمكن أن نؤكد على نفس ما أكد عليه هربرت ماركوز في كتابه الحب والحضارة حين اعتبر استعمال المقولات النفسية لوصف حالة الإنسان الحديث ضروري لفهم الحالة السياسية العامة في العالم، يقول ماركوز: «نتيجة ما يعيشه الإنسان الحديث من أوضاع فريدة، فإن استعمال المقولات السيكولوجية لوصف حالته ضروري ما دامت هذه المقولات تعبر في الأصل عن وضع سياسي حضاري»Herbert Marcuse.Eros et civilisation .ed minuit.paris.1986.p.9

كتابهما «ضد-أوديب»[16] عندما أقرا بخضوع الرغبات لسيرورة الإنتاج الاجتماعي والتجاري، مما ينم عن دور الشبكة الجديدة للثقافة والفن في صنع ذاك الإيروس الجديد هو بالأساس موضوع للاستهلاك الاقتصادي. تحولت طبيعة المكونات الأساسية للحياة الإنسانية بشكل هو أقرب للاستلاب منه للتحقق، ففارقت هذه الطبيعة النزعة التأملية بالكامل وحايثت النزعة الاستهلاكية بشدة بالغة، وما ذلك إلا إمعان من نظام التفاهة في صناعة متوسطي الفهم. ومن شأن هذا التوسط في الفهم أن يفني الذوق الجمالي والإبداع الفني.

لعل أهم ما يميز متوسطي الفهم les médiocres[17] هؤلاء إلحاحهم المستمر على وجوب خضوع كل إنتاج لحكم **المتلقي/الجمهور**، فليست غاية هذا الإنتاج الإبداع الخالص أو السير بالإنسانية نحو الغاية الأسمى، بل نشدان استمالة المتلقي وتحقيق رغباته، وإن كانت رغبات باطولوجية. إن ذهنية متوسطي الفهم تذهل عن حقيقة الثقافة والفن والفكر والإبداع وترزح تحت نير العرض والطلب والحاجة والاستهلاك، ويسهم في صناعتها السوق والمال والاقتصاد الغبي stupid economy لا الفكر النقدي الحر، ذهنية تثوي نظاما عالميا ينحو في مسعى امبراطوري للتحكم والسيطرة على كل شأن، يتجاوز حدود الزمان والمكان ويعبر التاريخ والجغرافيا ويوحد في تفاهته جميع الفعاليات الإنسانية. إنه النظام الشعبوي، ملتقى التوافه وملتقى العلماء الحالمين لكن بالثروة وحدها لا المهووسين بفضول المعرفة والرغبة في الوصول إلى الحقيقة.

يستدعي فهم نظام التفاهة الوقوف عند طبيعة أسسه وتقنيات اشتغاله (إعلاميا واجتماعيا وبحثيا جامعيا) وخطورة مآلاته، الأمر الذي يسمح بتحديد المعوقات التي تواجه مسعى تحقيق ثقافة المواطنة وترسيخ أبعادها الفلسفية الكونية. وليست مهمة الفلسفة اليوم غير الإسهام الفعال في هذا **المسعى فالحاجة إليها ما زالت ملحة وراهنيتها ما زالت قائمة مادام ديدنها المساءلة والتوجه بالنقد نحو الأسس، وهي بذلك قمينة بممارسة مهمتها التأسيسية في القطيعة مع نظام التفاهة وإحياء جذوة المعنى وسؤال المواطنة.** إذن ما طبيعة هذه القطيعة التي يجب إحداثها مع نظام التفاهة؟ وما مبررات ومسوغات قيامها دونما اعتماد موقف آخر غير القطيعة؟ وما السبيل لاستعادة الاعتبار لثقافة المواطنة وترسيخ قيمة التسامح وعقلية النقد؟

---

16 حسب جيل دولوز وفليكس غاتاري في كتابهما «ضد-أوديب»...ليست الرغبة غياب عن الواقع، بل هي في الأصل أساس كل إنتاج واقعي، بل حتى أساس سيكولوجي للواقع النفسي الاستهامي...فعندما نختزل إنتاج الرغبة في صناعة الاستهامات كما يدعي أصحاب نظرية التحليل النفسي، فإننا نقتصر على استخلاص نتائج التصور المثالي الذي يقضي بغياب الرغبة، لا اعتبارها إنتاجا...فالرغبة وموضوعها يكونان-وهذا صحيح بالنسبة إلى عصرنا الحالي-وجودا واحدا؛ ففي مجال المجتمع ليس هناك سوى الرغبة، ومجال الصراع حولها».

Gilles Deleuze et Felix Guattari.L'Anti-oedipe. Minuit. 1976.p34/37

إن التعارض بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة هو ما ينتج الحضارة حسب سيغموند فرويد، لكن في المجتمع المعاصر والذي يعبر عن أبرز تجلياته المجتمع الأمريكي، ليس هناك أي تعارض بين مبدأ الواقع ومبدأ اللذة، وهذا راجع إلى طبيعة المجتمع الصناعي الذي تدخل اللذة ضمن ما يصنع وما ينتج، حتى لا يتبقى فكرة اصطدام الإنسان بالعالم ممكنة. وربما هنا بالضبط يكمن مربط الفرس بخصوص صناعة الهيمنة على الإنسان.

17 «إن التفاهة (بالفرنسية médiocrité) هو الاسم الذي يشير إلى ما هو متوسط، تماما مثلما تشير كلمات supériorité وinfériorité إلى ما هو أعلى وما هو أدنى. ليس هنالك لفظ مثل moyennete. ولكن مصطلح نظام التفاهة la médiocratie يفيد مرحلة التوسط خلال فعل ينطوي على ما هو أكثر من التوسط. إنه يعني هذه الدرجة الوسطى بعد رفعها لمصاف السلطة. بذلك، فإن نظام التفاهة la médiocratie هذا إنما يؤسس لوسط لا يعود فيه المعتاد هو محض توليف مجرد synthesis يسمح لنا بالوقوف على كنه الأمور، بل يصبح هو المعيار الذي يضطر للخضوع له. وهكذا، فإنه يظن المرء نفسه حرا libre ضمن نظام مثل هذا هو أمر لا يعني في حقيقته إلا فعالية هذا النظام.»...نظام التفاهة، ص ص71/70

في القطيعة الجمعية مع نظام التفاهة

تستلزم القطيعة الجمعية مع أي نظام، خصوصا إذا كان متوغلا متحكما ومسيطرا على الحقلين الاجتماعي والاقتصادي، إعادة التأسيس عبر النظر الفلسفي النقدي المهجوس بسؤال العيش المشترك.

فمن شأن «السيطرة» the control عموما الهيمنة؛ ذلك أن المهيمن هو القدير بفهم المعنى الدقيق للسيطرة ما دام يمارسها وينشد استمرار نظامها، ويتسلح في هذا بالإيديولوجيا في مختلف استعمالاتها التشويهية والتبريرية والإدماجية[18]، إيديولوجيا تصهر المعرفة بالسلطة[19] والعلم في الجامعات بالإيديولوجيا، وتستغل الباحثين فيها وتسخرهم-مستثيرة طبيعتهم الإنسانية الغريزية- أدوات للهيمنة يسهل استعمالها. يتعلق الأمر هنا بفن وصناعة يخولان صبغ كل شيء بالصبغة التي يختارها المهيمن لا بتلك التي تشكل حقيقة الشيء نفسه، صبغة ما هو مهم معتبر ذو شأن أو صبغة ما هو تافه حقير شاذ لا يجدر اعتباره. فامتلاك آخر ما تجود به تكنولوجيا الاتصال من هواتف ذكية ومتابعة الصفقات الخيالية لانتقالات لاعبي كرة القدم وتسريحات شعر الفنانات والمؤثرين الاجتماعيين وقصصهم العاطفية ومواكبة موجة ما تسوقه آخر صيحات الموضة أمور جديرة بالاهتمام تبوئ صاحبها مكانة معتبرة. إن نظام التفاهة قادر من خلال سيطرته وهيمنته أن يظهر اختيارات الشخصية مظهر السواء أو مظهر الاعتلال والمرض النفسي.

يتوسل نظام التفاهة -بالإضافة إلى آليتي السيطرة والهيمنة- بآلية «التمويل» finance، التي تنهض بدور مفصلي في النزوع نحو المادية الصرفة. وغير خاف ما لنظام التفاهة من قدرة على الإعلاء من شأن الوجود المادي الطبيعي الغريزي الغفل للإنسان والحط من الوجود الذي كان به في الأصل إنسانا، وهو وجوده الرمزي[20] في معارضة صارخة للحد الذي صار ينماز به الإنسان في الفلسفة المعاصرة، حده بالكائن الرامز. آلية التمويل اختزلت الإنسان المعاصر في بعده المادي نتيجة سيادة ما سماه الفيلسوف الفرنسي ميشيل هنري

18 لقد ميز الفيلسوف الفرنسي بول ريكور في كتابه «من النص إلى الفعل أبحاث في الهيرمينوطيقا»، بين ثلاث وظائف مهمة للإيديولوجية تتراتب لتشكل مستويات مختلفة لاشتغال الإيديولوجية داخل الحقل الاجتماعي، باعتبارها حقلا للصراع الطبقي. تتمثل الوظيفة الأولى في القدرة على التشويه أي تزييف الوقائع والحقائق حتى يتم تشكيل الوعي الفردي والاجتماعي وفق تصور الطبقة الحاكمة الممتلكة لزمام السلطة. أما الوظيفة الثانية، فتتمثل في القدرة على التبرير لقيم وأفكار ومعتقدات الطبقة المسيطرة لتتخذ طابعا كونيا شموليا، وتهدف هذه الوظيفة إلى تجاوز ظاهرة الصراع الطبقي بخلق التوافق الذهني بين مكونات المجتمع وأفكار الطبقة المسيطرة. أما الوظيفة الثالثة، وهي الأكثر خطورة فتتمثل في الإدماج؛ أي في قدرة الطبقة المسيطرة على صنع أحداث وإدماجها في المكون الهوياتي، باعتبارها أحداث مؤسسة للذاكرة الجمعية. وتتظافر كل هذه الوظائف لتجعل من عمل الإيديولوجيا عملا علميا لا يرتكز على ترسيخ الوهم وفقط بل ينزع نحو الممارسة والتسامي الوظيفي لهذه الاستعمالات. وفي هذا السياق وقول بول ريكو: «ليس الوهم بالظاهرة الأساس في الإيديولوجيا، بل هو فساد يمس سيرورة التبرير التي تتجذر داخل الوظيفة الإدماجية»

Paul Ricoeur.Du texte à l’action Essais d’herméneutique II. Seuil.1986. p.426

19 في هذا السياق، يرى الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو في كتابه «المعرفة والسلطة» أن السلطة تقوم في أساسها على إبستيمي معرفي محدد تستفيد من استخدامه، فتعيد السلطة بذلك تشكيل المعرفة في كليتها بناء على أهدافها، لكن عملية التشكيل هذه تؤثر بوضوح على مناحي ممارسة السلطة ذاتها.

20 في هذا السياق، يرى الفيلسوف الألماني إرنست كاسيرر أن ما يميز الوجود الإنساني عن نمط الوجود الحيواني المادي الصرف هو تلك العلامة الفارقة التي تسمى «الرمز»؛ أي القدرة على التسامي المعنوي الذي بواسطته يخلق الإنسان عالما جديدا يدرك به محيطه وينتج من خلاله أفعاله الإنسانية. مما يصبغ وجوده بنوع من التعالي الذي يفصله عن وجوده المادي الحيواني المباشر. وفي علاقة بما أشرنا له سابقا هنا حول طبيعة نظام التفاهة؛ فهذا الخير يعمل على ضرب الوجود الرمزي الرامز لصالح الوجود الحيواني المادي بما يتلاءم ومنطق هذا النظام.

michel henry «بالتوحش المالي».[21] انعكست آلية التمويل على الإنسان المعاصر، حيث جعلته ماديا نزاعا نحو القياس المالي لكل شيء بما في ذلك قياس قيمة نفسه، والحال أنه بهذا القياس إنما ينساق مع غرائز القطيع بداخله ويحتكم لأوامرها انفعالا لا فاعلية وإبداعا. كما انعكست هذه الآلية عليه لما حملته على الانغماس في خدمة مصلحته الشخصية الضيقة بمسمى الفردانية[22].

إن نظام التفاهة طبقا للمنحى الذي يجعل من السيطرة والتمويل المالي سبيلين لوجوده يمكن تعريفه بما لا يدع مناسبة للشك على أنه «فساد» corruption. ومقاطعتنا لهذا النظام مقاطعة للفساد وهذه فضيلة أخلاقية. وتقوم هذه المقاطعة أولا على الوعي بخطورة الفساد الرأسمالي ذاك الذي أثقل كاهل المواطن بالقوانين البيروقراطية في العمل وبالتفاصيل التكنوقراطية المعقدة في السياسة والاجتماع وحجب عنه إمكانات ممارسة التفكير النقدي الثوري. كما تقوم ثانيا على الانخراط العملي في مقاومة تملك من الشراسة ما يؤهلها لمجابهة الرأسمالية المتوحشة ومحاصرتها والقضاء عليها باجتثاث جذور تكونها.

تلزم إذن القطيعة مع نظام التفاهة بتبني فكرة الثورة، وهي فكرة لا تحيل هنا على شكل من أشكال الفوضى التي تنجم عن الروح الرومانسية الحالمة، بل على شكل من أشكال الوعي الفلسفي السياسي تقوده فضيلة السؤال وتحصنه استقلالية الفكر-الفردي ومن ثم الجماعي- من كل انجراف مع رهانات السيطرة بالتمويل على مختلف التنظيمات الحزبية والنقابية والمدنية الجمعوية. يفقد التمويل المادي التنظيمات مصداقيتها وينزاح بها عن مهمتها الرئيسة المتمثلة في خدمة الأفراد والمواطنين مما يعوق ثقافة المواطنة. فالتمويل الذي تتلقاه التنظيمات يجعل هاجس ودافع فاعليها -من علماء وخبراء ومنظرين وقادة ومناضلين وعموم المنخرطين- للانخراط أصلا تحصيل التمويلات للمشاريع استرزاقا لا خدمة للصالح العام، فتجد نفسها مستدرجة للفساد ومطبعة معه.

طالت آلية التمويل التنظيمات الحزبية والنقابية والمدنية فألفت نفسها أداة في خدمة مؤسسات اقتصادية راعية جبارة، مكرهة على تنفيذ الالتزامات المنصوص عليها في عقود الرعاية. وإن كان السقوط في فخ التمويلات قد طال تنظيمات تنسجم أيديولوجياتها وتوجهات الأنظمة المهيمنة، فإن كثيرا من التنظيمات اليسارية التقدمية لم تسلم من هذا الفخ كذلك، وإن سلمت منه عمدت الأنظمة المهيمنة تلك على خلق تنظيمات

---

21 يرى michel henry في كتابه la barbarie أن المجتمع المتقدم المشبع بروح الحداثة التقنية، نزع بشكل فج نحو النزعة العاملية؛ إذ ساهم في قتل النزعة الإبداعية والتخيلية الرومانسية التي بنيت عبر سنوات طويلة في التقليدين الفلسفي والفني الغربي منذ الإلياذة والأوديسا. لقد أصبح المجتمع المتقدم خاضع لمنطق المال ما دامت توجهه النزعة الخبراتية لا الإنسانية؛ كل شيء أصبح محكوما بالتمويل المالي، حيث فقد الإنسان المعنى والحرية، ولم يعد قادرا على امتلاك زمام أموره وإبداع أساليب جديدة للحياة خارج النزعة الاستهلاكية.

22 يشير المفكر والمؤرخ الفرنسي ألكسيس دو طوكفيل في كتابه الديمقراطية في أمريكا أن المجتمع المهيمن عليه بفعل السلطة الكليانية غالبا ما يربي أفراده على شكل محدد من الفردانية يعزل الأفراد ويجعلهم أنانيين لا يفكرون إلا في أنفسهم وأقرب الناس إليهم مدعين في ذلك أن روح المجتمع تتماهى والحرية بمعناها الفرداني، لكن على العكس من ذلك لا ينتج عن هذا المعنى إلا عزل الفرد عن محيطه وإبعاده عن المجال الاجتماعي بما هو مجال للممارسة السياسية الديمقراطية. وإذا ما تأملنا نظام التفاهة، نجده يتبنى نفس المقاربة في تسويقه لفكرة الفردانية.

يسارية موالية لها حتى ذهلت هذه التنظيمات عن مهمتها النضالية وفقدت بوصلة هويتها اليسارية وحق عليها القول «بأن السياسات ذات الاتجاهات اليسارية هي سياسات لا تعرف إلى أين هي متجهة»[23] اليوم.

إن المؤسسات الاقتصادية الممولة والداعمة لهي نفسها التي تستنزف على الدوام ودونما رحمة جيوب المواطنين برفع الأسعار قصد استعادة الأجور التي تدفعها للعمال مقابل العمل، كما وتثقل كاهل هؤلاء بساعات العمل الطويلة في المعامل. يحصل كل هذا أمام أنظار تنظيمات تدعي التقدمية لكن أفواهها ملجمة عن الانتقاد والاحتجاج مادامت متورطة في الفساد بقبولها التمويل، فيفقد المجتمع كل رقيب وحسيب وتنسد أمامه آفاق التغيير. لطالما شكلت التنظيمات الاجتماعية، وخاصة التقدمية منها، آمال المواطنين وتعلقت بها انتظاراتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن هذه التنظيمات في عصر التفاهة ألقت بنفسها في أحضان المؤسسات الاقتصادية الكبرى فصارت بوقا لترويج اختيارات مناقضة لمشروعية تأسيسها عبر ما تصطنعه من مناشير وتقيمه من ندوات وتعقده من محاضرات لم تسلم منها رحاب الجامعات تخديرا للعمال والطلبة وإيهاما لهم بأن عدم الالتزام بتوجهات المستثمرين وبشروط سوق العمل يعصف بحقوق الشعب ويؤدي لشيوع البطالة واستفحال الكساد واتساع رقعة الفقر والمعاناة. إنهم يقودون الشعب للذبح العظيم في اللحظة التي يوهمونه فيها بالخلاص الاقتصادي الاجتماعي المذهل.

التمويل إذن آلية يتفه بها نظام التفاهة التنظيمات السياسية والنقابية والمدنية بأن يجندها لخدمة أجندات غيرها، ويزيغ بها عن خدمة رسالتها لحسابات مادية ضيقة، فيفقد المجتمع -ومعه المواطن- إمكانات التحرر وآمال بلوغ المواطنة الحقة. لذا تصير القطيعة الجمعية مع هذا النظام ضرورة اجتماعية وواجبا أخلاقياـ فما دلالة هذه القطيعة؟

تدل القطيعة الجمعية مع نظام التفاهة على مقاطعة التنظيمات الحزبية السياسية والنقابية والمدنية التي جعلت نفسها رهينة المؤسسات الاقتصادية الكبرى، بل ورفض التوجه الرأسمالي المتوحش للدولة، ذاك الذي صيرها شركة وصير مواطنيها عمالا وفلاحين وصير آمال طلبتها الاندماج في هذه الشركة. وشتان ما بين الدولة/الشركة ودولة المواطنة الحقة.

2/ نحو ثقافة مواطنة حقة

بعث ثقافة الأنوار واستحضار مكاسبها مسلك كفيل بمواجهة نظام التفاهة الشعبوي اليوم مثلما كفل تقدم البشرية بالأمس. لقد شكلت هذه الدعوى مضمون ما صدح بها المفكر الكندي steven pinker ستيفن

23 دونو آلان، نظام التفاهة، ترجمة وتعليق؛ مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار السؤال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020، ص305

بينكر[24] في كتابه «التنوير الآن»، [25] enlightenment now-the case for reason science humanism and progress قائلا: «إنه لا سبيل لنا لخروج الإنسانية من أزماتها في جميع مراحل التاريخ المقبل إلا بالرجوع لفكر الأنوار من خلال محاولة قراءته بشكل فلسفي جيد وبدون خلفيات». يشكل هذا التوجه تأييدا قويا لقيم التنوير ومقدمة جدالية يمكن من خلالها بناء تحليل رصين لمواجهة من يحاولون نشر إشاعة تراجع هذه القيم -والتي من بينها قيمة المواطنة-في عالمنا المعاصر نتيجة ظهور بعض الخطابات المهجوسة بالنزعتين الدينية والثقافوية، المسيرة الإنسان نحو الانغلاق والتشدد للقيم الخصوصية. فما دام الواقع الملموس يثبت أن البشرية في تقدم مستمر-رغم الحروب والنزاعات-بفضل الالتزام بمبادئ وقيم عصر الأنوار، فيمكن أن نجدد هذا الالتزام بما يتناسب وروح العصر حتى نخرج من عنق زجاجة الشعبوية وما خلقه نظام التفاهة من متاهات أضاع بين طرقها الإنسان واحدة من أهم القيم الأخلاقية/السياسية، ألا وهي المواطنة.

يظهر إذن، -ونحن ندعي امتلاك الذكاء والامتياز به عن غيرنا من كائنات الأرض-أننا قد أخفقنا في جعل عالمنا أكثر أمنا وأقل حربا، لكن هذا المآل لا ينفي أن يحملنا على النزعة التشاؤمية العدمية، فجميعنا يلحظ العيش وقد تحسن، والحياة وقد تجودت، والمعرفة وقد ارتفع منسوبها، وهذه أسس مهمة للعيش المشترك جعلت إنسانية اليوم في وضع أفضل مما كانت عليه في السابق. فإذا ما قمنا بتقييم حالة البشر منذ ظهور فلسفة الأنوار إلى حدود اليوم، سنرى أن النتيجة إيجابية رغم كل محاولات أعداء التنوير[26] لإفشال مهمة العقل في الرقي بالبشر. ومن شأن «خطاب الأنوار» حسب تعبير ستيفن بينكر إمداد الإنسانية بمبادئ مواجهة نظام التفاهة وضمان التحرر منه والاتجاه نحو عالم المواطنة الأرحب. هذه المبادئ التي يمكن إجمالها في أربعة أساسية، وهي:

1/ مبدأ العقل the mind: يعد العقل في فلسفة عصر الأنوار أحد القدرات الإنسانية الجبارة التي يمكن استخدامها في تحصيل المعرفة وفهم كيفية عمل الكون وعلاقة الإنسان بالطبيعة. إنه أداة للتأمل والتفكير في طبيعة الكون والغايات الروحية للوجود الإنساني. ولقد فضل أغلب فلاسفة التنوير العقل النقدي؛ لأن مستخدمه يروم الحقيقة بدلا من العقل العاطفي المنغمس في الانفعالات والشهوات. في هذا السياق، يعد العقل معيارا للتمييز بين الخير والشر وقياس مدى توجه الإنسان نحو الحياة الطيبة وتحقيق التوازن والسعادة والحكمة. لا يمكن لأي خطاب أن يكون مقبولا، إلا إذا تأسس حجاجيا على مسوغات عقلية واضحة لا علاقة

24 ستيفن أرثر بينكر من مواليد 18 أيلول 1954م، وهو عالم نفس معرفي «إدراكي» يحمل الجنسيتين الكندية والأمريكية، وعالم لغويات ومؤلف لكتب علوم مبسطة. يشغل منصب أستاذ في قسم علم النفس بجامعة هارفارد، معروف بالدفاع عن علم النفس التطوري والنظرية الحاسوبية للعقل. موثق بالوسائطية ويكيبيديا للأعلام.

25 يحاول ستيفن بينكر في كتابه «التنوير الآن» أن يرصد التقدم الذي حققه الإنسان منذ عصر الانوار إلى اليوم، مع تحديد الكيفيات التي من خلالها شكلت قيم عصر الأنوار محركا أساسيا لتهذيب الطبيعة البشرية وتحسين أدوار العقل والارتقاء بمهام العلوم.

26 من هم أعداء التنوير حسب ستيفن بيكر؟ إنهم أولئك الذين يريدون تسييس التنوير وإقناعنا بأنه صناعة غربية عولمية الهدف منها القضاء على الثقافات والأديان. ولعل الحركة الرومانسية من بين هؤلاء حسب ستيفن بينكر، إذ حاول هؤلاء الحط من قيمة الانسان الفرد الشخص لصالح الجماعة، حيث أدى ذلك إلى محاربة القيم المدنية والاعلاء من شان القيم القومية. ولعل هذا ما يتفق عليه كل من بينكر ودونو أن نظام التفاهة يقتات على الفكر القومي الرومانسي الذي يضيق الحدود ويشتبك مع كل ما هو كوكبي. بالإضافة إلى ذلك يلعب الدين دورا أساسيا إلى جانب الايديولوجيا في خلق ثقافة الاصطفاف بين يمين ويسار ووسط، في محاولة لتقديس النظم ورفعها إلى مرتبة الأخويات في ضرب واضح لقيم المنطق والعقل السليم.

لها بكل ما هو تسطيحي تبسيطي. يمكننا عن طريق عنصر العقل فقط تجاوز النزعة الاختزالية السطحية المعتمدة على القص الهادف التبسيط وكذا البث في مسوغات لغة الخشب المعتمدة من طرف خبراء نظام التفاهة. لا يمكن مواجهة أساليب استفزاز الغريزة البشرية التي غدت منفذا للتأثير على الصحة النفسية للإنسان ودائرة قيام الخطابات الرأسمالية الاستهلاكية المجهدة لقوى الإنسان دون اعتماد مبدأ العقل.

2/ مبدأ العلم science: في الفكر الأوروبي الحديث، كان للعلم دور رئيس في تشكيل الفهم البشري للعالم، بوصفه مورد المعرفة والفهم وسبيل تحقيق التقدم. ولا يقتصر دور العلم هنا على المعرفة الطبيعية وحدها، بل يشمل أيضا العلوم الاجتماعية والإنسانية التي شرعت في تأسيس نفسها بدءا من القرن التاسع عشر. ولقد تم فهم العلم في الفكر الأوروبي الحديث على أنه عمل منهجي يعتمد على الملاحظة والتجريب والتحليل والقياس والتكميم لتفسير وفهم الظواهر الطبيعية والاجتماعية. إنه قدرة_على التفسير والفهم الدقيقين الممكنين من توفير أسس وجيهة لاتخاذ القرارات السديدة والتوجهات الرشيدة في حياة الإنسان.

يعد تقدير العلم وتعزيزه توجها مهما في الفلسفة الحديثة، نظرا لما يسمح به من إشاعة للتفكير النقدي والتحليل العقلاني. ومن خلال الدفاع عن دور العلم في الفلسفة الأوروبية الحديثة هدف الفلاسفة إلى تعزيز فهم العالم وتعزيز الثقة في قدرة البشر على تشكيل مصائرهم. ورغم بعض التحفظ عن دور العلم ومدى قدرته على حل مشاكل البشرية، فلا مندوحة عنه في تشكيل الفهم البشري وتحسين الحياة الإنسانية. «إن العلم والتقنية وما يلزم عنهما من تقدم هما المحرك الأساس لقوى عملية الإنتاج».[27] ولهذا السبب وغيره لا يمكن التعامل مع العلم بوصفه خادما لأجندة ولا وسيلة للمزايدات بين البشر، رغم ما كشفت عنه بعض الدراسات الفلسفية المعاصرة من تلازم العلم بالسلطة، باعتبارهما قد نشآ من الرحم ذاته - كما هو الحال في أعمال ميشيل فوكو-. ينبغي التعامل مع العلم، بكل تخصصاته، على أنه وسيلة لحل المشاكل لا لخلقها. يمثل هذا المعنى الأنواري للعلم أداة ضرورية من أدوات مواجهة النزعة التقنوية التخصصة التي انزاحت بالعلم عن مقاصده الإنسانية الكبرى، وصيرته مجالا للاتجار والاسترزاق، ونزع الطابع الفني والجمالي عن الذوق الإنساني. بهذا المعنى تغدو «النزعة العلمية تصور حول العالم يجعل من الفاعلية الإنسانية ذات معنى[28]»، أي اعتبار العلم وسيلة لمواجهة التحديات كفيل بترسيخ دعائم التقدم في كل المجالات بما في ذلك السياسي والأخلاقي وهو ما ينعكس إيجابا على تقوية الفكر والفعل المواطنين.

3/ المبدأ الأخلاقي الإنساني human morals: تطورت في عصر الأنوار فكرة الأخلاق وتحولت إلى مفهوم جديد ومتقدم أكثر عمقا وأكثر شمولا وأشد تحررا من القيود الدينية والتقاليد القديمة، حيث تم بناؤها على منظور علمي وفلسفي جديد غدت معه أخلاقا عقلانية وأخلاقا وضعية. تم في الأخلاق العقلانية التأكيد على

27 Habermas Jörgen. Après Marx. ED Payot. Paris.1975. Tome 2. P. 303

28 Habermas Jörgen.Raisson et légitimité. Problèmes de légitimation dans le capitalisme avancé. Paris. ED payot.1978. p.71

استخدام العقل والمنطق لفهم القيم والمبادئ الأخلاقية، وتحديد ما إذا كانت تلك القيم والمبادئ تتوافق مع المنطق والعقل، بدلا من الاعتماد فقط على الدين والتقاليد. وفي الأخلاق الوضعية، تم التركيز على السياقات والظروف المحيطة باتخاذ القرارات الأخلاقية ومدى توجيهها للتصرفات الإنسانية. لا يمكن في هذا السياق، تجاهل أهمية الفكر الأخلاقي لفلاسفة ومفكري عصر الأنوار في تعزيز فكرتي العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان دفاعا عن المساواة بين البشر ومحاصرة لجميع أشكال_التهميش والتفقير وإعلاء من قيمة الذات الإنسانية وقيمة التعاطف والغيرية[29]. بالتالي، فقد كانت الأخلاق في عصر الأنوار تعني أكثر من مجرد اتباع القوانين والتقاليد، بل تحمل معان عميقة وشمولية، تلبست فيها بعض المفاهيم والضوابط الدينية لبوسا أخلاقيا أكثر عقلانية.[30]

لا تكون التصرفات أخلاقية إلا إذا صدرت عن تطابق بين الرغبات الفردية والطبيعة الإنسانية المنظور إليها باعتبارها طبيعة خيرة متمثلة في حب الخير للغير محبته للذات، ومعاملة الغير على شاكلة إرادة الذات في معاملته لها. وتمثل هذه الأخلاقية جوهر الوجود الإنساني وتعد رادعا لكل نزوع نحو الشر المتمظهر في الاستغلال وتقويض السلام والحرب. فلا مواطنة حقة دون أخلاق إنسانية سامية أساسها الإرادة الطيبة وأداتها الاحتكام للواجب الأخلاقي المطلق.

4/ مبدأ التقدم progress: كانت فلسفة عصر الأنوار، حركة ثقافية وفكرية هامة في التاريخ الغربي، تؤمن بالتقدم والتطور في جميع مجالات الفعالية الإنسانية من علوم وتقنيات وفنون وآداب وفلسفة. وكان لها عظيم الأثر على التفكير البشري والتقدم الحضاري. ويمكن فهم التقدم في سياق فلسفة عصر الأنوار على مستويات عدة شملت مما شملته تقدم فهم العالم والكون من خلال العلم والمنطق، من منظور يتجاوز الفلسفات السابقة المعتمدة على الأرسطية والرؤية اللاهوتية. حيث ظهرت مدارس فلسفية جديدة- مثل

---

29 يؤكد الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوغست كونت في كتابه مواعظ وضعية، أن أهم ما يميز الحياة الإنسانية المتوافقة ومبادئ عصر الأنوار والتفكير الحديث عموما، هو انسجامها مع الروح العلمية وتجاوزها للمنطقين اللاهوتي والميتافيزيقي، ما يفتحها-الحياة الإنسانية-على النزعة الغيرية المنسجمة وروح الإنسانية السمحة المبنية على التضامن والتعاطف والحياة من أجل الغير. وهذا ما نحتاجه في عصرنا الحالي لمواجهة قيم الصراع والأنانية. يقول أوغست كونت: «كل شيء في حياتنا ينتمي لما قدمته لنا الإنسانية من خيرات، سواء تعلق الأمر بالحياة ذاتها أو الثروة والموهبة... يمكننا اختزال الأخلاق الإنسانية في فكرة واحدة هي الحياة من أجل الغير، هكذا نهذب الغريزة البشرية ونسيجها...إن الغيرية وحدها القادرة على تزويدنا بحياة متميزة.... لهذا يجب أن نتخلى البشرية...عن أنانيتها الهمجية» أنظر Auguste Comte. Catéchisme positiviste. Librairie GARNIE FRERES. Paris. Sans Date. P 276-278

30 من بين أهم فلاسفة الحداثة والتنوير-على وجه الخصوص الأنوار الأنجلوسكسونية- الذين عملوا على إعادة النظر الفلسفي الأخلاقي في المفاهيم الدينية المؤسسة نجد الفيلسوف جون لوك الذي عمل في رسالته حول التسامح على إعادة تعريف مفاهيم الايمان والكنيسة والخلاص من وجهة نظر أخلاقية تحترم الأفاق الفلسفية للمفهوم ونسوق هنا بعض من حديث جون لوك عن تجديد مفهومه للخلاص مثلا، حين يقول: «فإذا كانوا يزعمون أنهم يجردونهم من ممتلكاتهم ويذيقونهم العذاب والجوع في سجون قميئة ويقتلونهم في نهاية المطاف، كل ذلك استنادا إلى مبدأ المحبة وإلى محبتهم لأرواح هؤلاء، أقول إنهم إذا كانوا ا يفعلون كل ذلك من أجل أن يكونوا مسيحيين وأن يطمئنوا على خلاصهم ليس إلا، لماذا إذن يمارسون الدعارة والاختلاس وإيذاء الآخرين وكل ألوان الشرور، على حد قول الرسول بولس (رومية 1)، بحيث استمرأوا ارتكاب الإثم الشيطاني لكي يسيطروا على رعاياهم وشعوبهم...من الصعب على إنسان لا يكترث بخلاصه الروحي أن يقتنعي باهتمامه البالغ بخلاصي. فأمر محال على أولئك الذين تخلو قلوبهم من الديانة المسيحية أن يكرسوا أنفسهم بإخلاص وحمية لتحويل الآخرين إلى المسيحية. وإذا كانت البشارة والرسول موثوقا فيهما فإنه لا يمكن لإنسان أن يكون مسيحيا دون محبة ودون الإيمان الذي لا يؤثر بالقوة بل بالمحبة» ... إن الخلاص بالمعنى الذي يطرحه جون لوك هنا يعبر عن نقد حد لتصور المتدينون للخلاص، على اعتبار رجوعهم في تصوره لتصور متعصب للدين، ولهذا لا يمكن فتح الانسان على أفق أرحب دون نقد هذا الوضع والتوجه نحو ما هو كوني. أنظر جون لوك. «رسالة في التسامح». ترجمة: منى أبو سنة، تقديم ومراجعة: مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة؛ ط: 1، 1997. ص: 20/19

تجريبية بيكون وعقلانية ديكارت ونقدية كانط- كان لها انعكاس على فهم الإنسان للكون ولدوره فيه ولكيفية تحقيق النجاح والسعادة في الحياة. انبثقت إذن تصورات جديدة عن الإنسان ومكانته في العالم التي شكلت أفكار عصر النهضة إرهاصاتها الأولى. كما شمل مفهوم التقدم-في فلسفة عصر الأنوار- التحرر من الجمود والوصاية سواء تعلق الأمر بنظام الفكر أو نظام المجتمع، فانفتح المجال أمام الحرية والإبداع والتنوع مما أسهم في التغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية بأروبا. وعليه فإن التقدم في فلسفة عصر الأنوار مثل رغبة في التحول والتجديد والبحث عن المعرفة والحقيقة والإبداع والتفرد، كما مثل محاولة للتخلص من القيود والقيم القديمة التي ما فتئت تكبل التفكير وتعوق تطور الإنسان. لهذا لا يجب أن يذهل خطاب التنوير عن هدفه الأساس وهو التقدم بالإنسانية نحو الخير للجميع دون تهميش أو إقصاء لأحد.

من شأن الاعتماد على مبادئ خطاب الأنوار إذن محاصرة نظام التفاهة وهي مبادئ تستدمج داخلها العقل والعلم والأخلاقية الإنسانية والتقدم، باعتبارها مكونات لا غنى عنها لتفنيد النظرة التشاؤمية ومواجهة التحديات الكبرى، وتسديد الفعل الإنساني بحب الخير والرفاه للجميع. في هذا السياق يؤكد ستيفن بينكر أن اتخاذ العقلانية والعلم منهجا في التفكير وقوة دافعة وراء كل عملية تقدم بشري سيحصل عنه ضرورة تجاوز التحديات الاجتماعية والاقتصادية الكبرى التي كانت سببا مباشرا في تراجع الحريات وثقافة المواطنة. فكما شهد العالم قبل ظهور الشعبوية المؤسسة تقدما في مجال الطب والصحة والتعليم وتحسين شروط العمل بفضل قيم التنوير، يجب اليوم لتجاوز هذا المنعطف الالتزام بهذه القيم مع تسديد هذا الالتزام بتفاؤل معتدل، فيه اعتراف بالسابق كونه مصدرا للإلهام في المستقبل.

إن مبادئ خطاب التنوير تخلق نوعية حياة جيدة وتحسن شروط العيش بما يتوافق وحقوق الإنسان، مما يدفع المجتمعات نحو التنمية وإعادة تشكيل ذاتها بناء على تصور فلسفي كوني للعدالة، تساهم من خلاله الإنسانية جمعاء في حل المشاكل ومواجهة التحديات الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والبيئية. مشاكل وتحديات خلقها نظام التفاهة وإطاراته الاقتصادية الكبرى، التي صيرت العالم موطنا للتفاوتات والتوترات، والتغيرات المناخية والتشدد الديني والقومي...إلخ. إن دعوة بينكر إلى تجديد الصلة بمبادئ خطاب التنوير هي دعوة للإيمان بالتقدم وتحصين للمعنى والحرية والمواطنة في هذا الكوكب. وتستحيل هذه الدعوة-حسب ستيفن بينكر- دون ترجمة مبادئ خطاب التنوير إلى تطبيقات أساسية يمكن إجمالها في أربعة محددة:

1/الاعتماد على آليتي التجريد abstraction والتركيب synthesis في التعاطي الفكري مع كل المسائل. ينسجم هذا التعاطي وروح العقل الأنواري القائم على مبدإ التجرؤ على استعمال الفهم العقلي الخاص بعيدا عن كل وصاية.[31]

2/الاعتماد على الفعل التواصلي communicative act في مشاركة المعرفة المتحققة للذات بعد التجريد والتركيب. فالمعرفة التي يصل إليها العقل يجب أن تكون ملكا للجميع عبر اللغة باعتبارها تموضعا للعقل وخروجا به من ذاته نحو عالم الغير. وبهذا الاستخدام العمومي والتشاركي للعقل تتحقق الحرية[32] وحداثة الأنوار باعتبارها مشروعا لم يستنفذ بعد كل طاقاته وما زال يعد الإنسانية بالكثير، وهذا ما أكد عليه تيار المدرسة النقدية- باعتباره أحد التيارات الوازنة في الفلسفة المعاصرة- في أعمال أحد روادها الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس.

3/الاعتماد على آلية تجديد التعاقدات contract renewal بين البشر بما يخدم مصلحة الجميع. فبعد أن تتحقق المعرفة للعقل بالتجريد والتركيب ويتحقق لها باللغة التواصل والتشارك، سيتحقق للبشر حتما الاجتماع طبقا لشروط العقل لا شروط المصالح المتفاوتة والنزعات الضيقة.

4/الاعتماد على قاعدة خلق التطابق congruence بين العقل الإنساني والطبيعة البشرية، فتسمو أخلاق الناس وتنبل عواطفهم ويتقوم سلوكهم بمبدأ العقل وحده. ومدخل تحقق هذه القاعدة الأخلاقية تحقق الأبعاد المعرفية والتواصلية والتعاقدية.

لا سبيل إذن لإحياء ثقافة المواطنة ومواجهة الشعبوية ومظهرها الأبرز المتمثل في سيادة نظام التفاهة، دونما اعتماد المبادئ الأساسية لخطاب التنوير، وترجمة مضامين هذه المبادئ إلى تطبيقات تجعلها ممكنة من ناحية جمع النشاط الإنساني بين البعدين النظري والعملي.

---

31 يعرف كانط الأنوار، بـأنها خروج الإنسان من قصوره الذي هو نفسه مسؤول عنه، قصور يعني عجزه عن استعمال عقله دون إشراف الغير، قصور هو نفسه مسؤول عنه، لأن سببه يكمن ليس في عيب في العقل، بل في الافتقار إلى القرار والشجاعة في استعماله دون إشراف الغير، تجرأ على استعمال عقلك أنت، ذاك هو شعار الأنوار. ويضيف كانط أنه من الصعب على كل فرد أن يخرج بمفرده من القصور الذي كاد أن يصبح له طبعا، فهو قابع فيه بارتياح. ولم ينتج هذا الوضع حسب كانط إلى بسبب تلك السياسات التطويعية التي ينهجها الحاكمين ورجال الدين، فالكل يأمر افعل كذا ولا تفعل كذا، آمن، أطع...من مستلزمات الأنوار الحرية، أي أن يترك لكل إنسان الحق في استعمال عقله علانية داخل الفضاء العمومي دون تدخل أي كان، ويرى كانط أهم مجال يجب استعمال العقل فيه بحرية هو المتعلق بالدين، لكيلا تبقى النقاشات في العقيدة إكليركية.

(انظر ما هي الأنوار لكانط) ترجمة د حسين حرب، وهناك ترجمة دقيقة كذلك لهذا الجواب قام بها الدكتور اسماعيل المصدق جامعة ابن طفيل القنيطرة المغرب)

32 من بين أهم القيم الأخلاقية الأصيلة في الفلسفة التي تسود وتكافح من أجل التفوق في المجتمع الحديث، هناك قيمة واحدة دائما ما تركت بصمتها على المجتمع المنظم وهي الحرية سواء بالمعنى المؤسسي أو بمعنى الاستقلال الذاتي» Axel Honneth.Le droit De La Liberté.Trad par Frédéric Joly et Pierre Rusch .Gallimard. Paris.2015. p.25

على سبيل الختم

حاصل القول، هيمنت قوى نظام التفاهة على كل مناحي الفاعلية الإنسانية الفردية منها والجماعية، فغدت القطيعة مع هذا النظام ضرورة اجتماعية وواجبا أخلاقيا. وتسمح تطبيقات خطاب الأنوار بعناصره المؤسسة من عقل وعلم وتقدم وأخلاقية إنسانية باستعادة هذا الخطاب لعافيته[33]ونسج الخيوط الرفيعة لفكر المواطنة. وتدعو القطيعة مع نظام التفاهة مواجهة كل المطبعين مع قيم التخلف والاستهلاك والقومية الرومانسية التي تعلي من شأن غرائز الانحطاط، وتعادي الحياة وتسلخ العلم والتكنولوجيا من طبيعتهما الأخلاقية. وأزمة المواطنة اليوم لا ترجع إلى سيادة نظام التفاهة فقط، بل وأيضا إلى عدم وجود من يخوض المعارك من أجل التنوير، والتي هي معارك من أجل المواطنة الحقة. لذا، يجب خوضها باقتدار عسى يستعيد الإنسان رشده ويتقوم عقله ويجتث نظام التفاهة من جذوره.

33 يقول ستيفن بينكر في كتابه «التنوير الآن» حول العقل في علاقته بالحياة والإنسان؛ «ولأن العقل يخبرك بأن أيا من هذا لا يخصك وحدك، فإن على عاتقك تقع مسؤولية منح الاخرين ما تتوقعه أو تريده لنفسك؛ إذ يمكنك تعزيز رفاهية الكائنات الحساسة الأخرى عبر تحسين مستوى الحياة والصحة والمعرفة والحرية والوفرة والأمن والجمال والسلام. إن التاريخ يرينا أننا عندما نتعاطف بعضنا مع بعض ونطبق براعتنا في تطوير الحالة البشرية، فإن بإمكاننا أن نحقق تقدما في هذا المجال، ويمكنك المساعدة في مواصلة ذلك التقدم» –بينكر ستيفن؛ التنوير الآن، ترجمة هالة جلال، منشورات بيت الحكمة2.0، العراق، بغداد، الطبعة الأولى، 2019، ص 9

لائحة المصادر والمراجع والمقالات باللغتين العربية والفرنسية

1/ دونو آلان، نظام التفاهة، ترجمة وتعليق مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار السؤال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2020

2/ بينكر ستيفن؛ التنوير الآن، ترجمة هالة جلال، منشورات بيت الحكمة 2.0، العراق، بغداد، الطبعة الأولى، 2019

3/ جون لوك «رسالة في التسامح». ترجمة: منى أبو سنة، تقديم ومراجعة: مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة؛ ط: الأولى. 1997

4/ شنابر وكريستيان باشولييه، ما المواطنة؟ ترجمة، سونيا محمود نجا. المركز القومي للترجمة. القاهرة. الطبعة الأولى. 2016

5/ دولاكومباني كريستيان؛ الفلسفة السياسية اليوم، ترجمة نبيل سعد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2003

6/ كانط إيمانويل؛ فكرة عن تاريخ كوني من زاوية نظر المواطنة العالمية، ترجمة محمد منادي إدريسي، نشر ضمن ترجمات مؤسسة مؤمنون بلا حدود، بتاريخ 20 يونيو 2020 بالمغرب، الرباط.

7/ Alain Deneault. La Médiocratie. Lux éd. Canada. 2015

8/ Paul Ricoeur. Du texte à l'action Essais d'herméneutique II. Seuil.1986

9/ Gilles Deleuze et Felix Guattari. L'Anti-oedipe. Minuit. 1976

10/ Habermas jorgen. Après Marx. ED payot. Tome 2. Paris. 1975

11/ Habermas Jörgen. Raisson et légitimité. Problèmes de légitimation dans le capitalisme avancé. Paris. ED payot. 1978

12/ Herbert Marcuse. Eros et civilisation. ed minuit.paris.1986

13/ Auguste Comte. Catéchisme positiviste. Librairie GARNIE FRERES. Paris. Sans Date.

14/ Axel Honneth. Le droit De La Liberté. Rad par Frédéric Joly et Pierre Rusch. Gallimard. Paris. 2015

15/ CHRISTIAN LE BART. CITOYENNETE ET DEMOCRATIE. LA DOCUMENTATION FRANCAISE. PARIS.2016

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com